فكِّر قبل أن تعمل

روي أن أحـدَ الـولاةِ كان يتجـول ذات يـوم في السـوق القديمـة متنكـرًا في زي تاجر، وفي أثنـاء تجواله وقع بصره علـى دكانٍ قـديم ليـس فيه شيء ممـا يغري بالشـراء، كان الـدكان شبه خـالٍ، وكان فيه رجل طاعـن في السن، يجلس بارتخاء على مقعد قديم متهالك، ولم يلفت نظر الوالي سوى بعض اللوحات التي تراكم عليها الغبار.

اقـترب الوالي مـن الشيخ المسـن، وحيّاه، فـردّ الرجل التحية بأحسن منها، وكان يغشاه هدوء غريب، وثقة بالنفس عجيبة، فسأل الوالي الرجل:

دخلت السوق؛ لأشتري، فماذا عندك مما يباع؟!

أجـاب الشيخ بهـدوء وثقة: أهلًا وسهـلًا، عندنا أحسن بضائع السوق وأثمنها!

قال ذلك دون أن تبدر منه أي إشارة للمزح أو السخرية، فما كان مـن الوالي إلا أن ابتسم، ثم قال: هل أنت جادّ فيما تقول؟

أجـاب الشيخ: نعم، كل الجـد، فبضائعي لا تقدر بثمن، أما بضائع السوق، فإن لها ثمنًا محددًا لا تتعداه!

دُهِشَ الوالي، وهـو يسمع ذلك، ويرى هذه الثقة، وصمت برهـة، وأخذ يقلب بصره في الدكان، ثم قال: ولكني لا أرى في دكانك شيئًا للبيع، قال الرجل: أنا أبيع الحكمة، وقد بعت منها كثيرًا، وانتفع بها الذين اشتروها، ولم يبقَ معي سوى لوحتين!

قال الوالي: وهل تكسب من هـذه التجارة؟ قال الرجل، وقد ارتسم على وجهه طيف ابتسامة:

نعـم، يا سيدي، فأنا أربح كثـيرًا، فلوحاتي غالية الثمن جدًّا!

تقـدم الوالي إلـى إحدى اللوحات، ومسـح عنها الغبار، فإذا مكتوب عليها: «فكِّر قبل أن تعمل».. تأمل الوالي العبارة طويلًا، ثم التفت إلى الرجل، وقال: بكم تبيع هذه اللوحة؟

قال الشيخ بهدوء: بعشرة آلاف دينار فقط!

ضحك الوالي طويلًا، حتى اغرورقت عيناه، وبقي الشيخ ساكنًـا، كأنـه لم يقل شيئًا، وظل ينظر إلـى اللوحة باعتزاز، قال الوالي: عشرة آلاف دينار! هل أنت جادّ؟

قال الشيخ: ولا نقاش في الثمن!

لم يجد الوالي في إصرار الشيخ، إلا ما يدعو إلى الضحك والعجب.

وخمّـن في نفسـه أن هـذا الشيخ مختـلّ في عقله، فظلّ يسايـره، وأخذ يساومه على الثمـن، فأوحى إليه بأنه سيدفع في هـذه اللوحة ألف دينـار، والرجل يرفض، فـزاد ألفًا، ثم ثالثة ورابعة، حتى وصل إلى تسعة آلاف دينار، والشيخ مازال مصرًّا على كلمته التي قالها.

ضحك الـوالي، وقرر الانصراف، وهـو يتوقع أن الشيخ سيناديـه إذا انصـرف، ولكنه لاحـظ أن الشيـخ لم يكترث لانصرافـه، وعاد إلى كرسيه المتهالـك، فجلس عليه بهدوء، وفيمـا كان الوالي يتجـول في السوق فكّر، لقـد كان ينوي أن يفعـل شيئًـا تأباه المروءة، فتذكر تلك الحكمـة: «فكِّر قبل أن تعمـل». فتراجع عمـا كان ينـوي القيام به، ووجـد انشراحًا لذلك. وأخذ يفكـر، وأدرك أنه انتفع بتلك الحكمة، ثم فكّر، فعلـم أن هناك أشياء كثيرة، قد تفسد عليه حياته لو أنه قام بها دون أن يفكر، ومن هنا وجد نفسه يهرول باحثًا عن دكان الشيخ في لهفة، ولما وقف عليه قال: لقد قرّرت أن أشتري هذه اللوحة بالثمن الذي تحدِّده!

لم يبتسـم الشيخ، ونهضـ من على كرسيـه بكل هدوء، وأمسـك خِرْقَـة، ونفض بقيـة الغبار عن اللوحـة، ثم ناولها الوالي، وتسلّـم المبلغ كاملًا، وقبل أن ينصرف الوالي قال له الشيخ: بعتك هذه اللوحة بشرط!

قال الوالي: وما الشرط؟

قـال: أن تكتب هذه الحكمة على باب بيتك، وعلى معظم الأماكن في البيـت، وحتى على أدواتك التي تحتاج إليها عند الضرورة، فكّر الوالي قليلًا، ثم قال: موافق. ذهب الوالي إلى قصره، وأمر بكتابة هذه الحكمة في أماكن كثيرة في القصر، حتى على بعض ملابسه وملابس نسائه، وكثير من أدواته.

وتوالـت الأيام، وتبعتها الشهور، وحدث ذات يوم أن قرر قائد الجند أن يقتل الوالي؛ لينفرد بالولاية، واتفق مع حلاق الـوالي الخاص، وأغراه بألـوان من الإغراء، حتـى وافق أن يكون في صفّه، وفي دقائق سيتمّ قتل الوالي!

ولما توجّه الحلاق إلى قصـر الوالي أدركه الارتباك، إذ كيـف سيقتل الوالي، إنها مهمـة صعبة وخطيرة، وقد يفشل، ويطـير رأسه. ولمـا وصل إلى بـاب القصـر رأى مكتوبًا على البوابة: «فكِّر قبل أن تعمل».

وازداد ارتبـاكًا، وانتفض جسده، وداخله الخوف، ولكنه جمع نفسـه، ودخل، وفي الممـر الطويل، رأى العبـارة نفسها تتكـرر مرات عدة، هنا وهنـاك: «فكِّر قبـل أن تعمل»، «فكِّر قبل أن تعمل»، «فكِّر قبل أن تعمل».

وحتى حين قرر أن يطأطئ رأسه، فلا ينظر إلا إلى الأرض، رأى على البساط العبارة نفسها تخرق عينيه، فازداد اضطرابًا وقلقًا وخوفًا، فأسرع يمدّ خطواته؛ ليدخل الحجرة الكبيرة، وهناك رأى العبارة نفسها تقابله وجهًا لوجه: «فكِّر قبل أن تعمل»، فانتفض جسده من جديد، وشعر بأن العبارة ترنّ في أذنيه بقوة لها صدى شديد.

وعندما دخل الوالي هاله أن يرى أن الثوب الذي يلبسه الوالي مكتوب عليه: «فكِّر قبل أن تعمل»، فشعر بأنه هو المقصود بهذه العبارة، بل داخله شعور بأن الوالي ربما يعرف ما خطَّط له!

وحين أتى الخادم بصندوق الحلاقة الخاص بالوالي، وأفزعه، فإذا به يقرأ على الصندوق العبارة نفسها: «فكِّر قبل أن تعمل»، فاضطربت يده، وهو يعالج فتح الصندوق، وأخذ جبينه يتصبّب عرقًا، وبطرف عينه نظر إلى الوالي الجالس، فرآه مبتسمًا هادئًا، وذلك ما زاد في اضطرابه وقلقه.

فلما همَّ بوضع رغوة الصابون لاحظ الوالي ارتعاشة يده، فأخذ يراقبه بحذر شديد، وتوجُّس، وأراد الحلاق أن يتفادى نظرات الوالي إليه، فصرف نظره إلى الحائط، فرأى اللوحة منتصبة أمامه: «فكِّر قبل أن تعمل».

فوجد الحلاق نفسه يسقط منهارًا بين يدي الوالي، وهو يبكي منتحبًا، وشرح للوالي تفاصيل المؤامرة، وذكر له أثر هذه الحكمة التي كان يراها في كل مكان، ما جعله يعترف بما كان سيقوم به.

ونهض الوالي، وأمر بالقبض على قائد الحرس وأعوانه، وعفا عن الحلاق.

وقف الوالي أمام تلك اللوحة يمسح عنها ما سقط عليها من غبار، وينظر إليها بزهو، وفرح وانشراح، فاشتاق إلى مكافأة ذلك الشيخ، وشراء حكمة أخرى منه. لكنه حين ذهب إلى السوق وجد الدكان مغلقًا، وأخبره الناس بأن الشيخ قد مات!

وقفة: انتهت القصة، ولكنها عندي لم تنتهِ بعد، بل بدأت بشكل جديد، وفي صورة أخرى، سألت نفسي: لو أن أحدنا كتب هذه العبارة مثلًا: «الله يراك.. الله ينظر إليك.. الله قريب منك.. الله معك.. يسمعك، ويحصي عليك».

كتبها في أماكن عدة في البيت، على شاشة جهاز الكمبيوتر مثلًا، وعلى طاولة المكتب، وعلى الحائط الذي يواجهه إذا رفع رأسه من على شاشة الحاسوب، وفوق التلفاز مباشرة، يراها وهو يتابع ما في الشاشة، وعلى لوحة صغيرة

يعلقهـا في واجهة سيارته، وفي أماكن متعددة من البيت، وفي مقر عمله.

بل، لو أن هذه العبـارة لكثرة ما فكَّر فيها، وأعاد النظر فيهـا، استقـرت في عقله الباطن، وانتصبـت في بؤبؤ عينيه، واحتلـت الصدارة في بـؤرة شعوره، وتـردّد صداها في عقله وقلبه، حيثما حملته قدماه، رآها تواجهه.

أحسـب أن شيئًا مثل هذا لو نجـح أحدنا فيه، سيجد له أثرًا بالغًا في حياته، واستقامة سلوكه، وانضباطًا في جوارحه، وسيغدو مباركًا حيثما كان.

تدبـر: قد تبدو لـك كثير من الأمور في غايـة التفاهة، ولكن عند التعمق فيها تبدو عكس ذلك تمامًا.